

مملكة الحيرة في أيامها الأخيرة

بقلم الأستاذ يوسف بك غنيم
وزير المالية العراق الأسبق

٤ : ازابرة

٦١٧ - ٦٢٨ م

عقب إياس على ولاية الحيرة رجل فارسي سماه حمزة الأصفهاني (١) زاده بن ماهيان ابن مهر بنداد الهمداني، وجعل مدة ولايته ١٧ سنة، وقال ابن الأثير : اسمه آزادبة بن ماهيان الهمداني (٢) ، وسماه بعض الكتبة روزبي بن مرزوق (٣) ، ولم تقف على أعماله والأحداث التي تمت في أيامه . والظاهر أن كسرى أبرويز جنح - بعد قتل النعمان أبي نابوس وانكسار جيشه في واقعة ذي قار - إلى سياسة فارسية بحتة في « الحيرة » ، وذلك بتعيين عمال من الفرس عليها ، وهكذا قضى على سلطان الفارزة .

وفي أيام هذا المرزبان خلع كسرى أبرويز وقتله مهر هرمز بن مردشاه فادوسبان نيسروذ، على ما ورداه الطبري (٤) ، وجلس على عرش الأكاسرة شيرويه بن أبرويز ، وجاء في بعض الروايات عن سبب خلع كسرى أبرويز وقتله ما يأتي :

اضطهد هذا الملك النصارى وقتل في إبان الاضطهاد أنطحاس الشهيد وزدين صرافه ، (أي صرافه للملك) ، وكان نصرانياً واستولى على أمواله ، فاتفق ابنا يزدين وهما : شحلا ومهر هرمز (ويسعى هذا الأخير قرطاق أيضاً) مع فريق من أشراف الدولة ورفعوا لواء العصيان على كسرى أبرويز ونادوا بخلعه وتنصيب ابنه شيرويه ، واستأذن ابنا يزدين شيرويه في قتل أبيه فأذن لها وقتله مهر هرمز (٥) ، ثم تماديا في عملهما وقتلا أولاد كسرى كلهم

« راجع « المعرفة » عدد ديسمبر ١٩٣٢ .

(١) كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء من ٧٤ (٢) الكامل ١ : ٢٠٠ (٣) شير : كلدو وانور ٢ : ٢٤٣ (٤) الطبري ٢ : ١٥٩ - ١٦٦ (٥) ضبط بعضهم اسمه نيهورمزد ، ويظهر من رواية الطبري ٢ : ١٦٦ أن مهر هرمز هو ابن مردشاه فادوسبان نيسروذ ، ويؤيد هذا القول ما جاء في تاريخ كلدو وانور لأدي شهر ٢ : ١٤٢ أن نيهورمزد اتفق وشحلا لأن كسرى أبرويز كان قد قتل أباه أيضاً ، أما (لابور) في كتابه الترنسي « تاريخ النصرانية في فارس » من ٢٣٥ ، فإنه يوحد قرطا أو قرطاق ونيهورمزد .

يعاونهما في أمرها عطاء الدولة ، ويقال إنهما أمعنا في غلواتهما وحاولا الاستيلاء على الملك وإقامة سلالة مالكة من أسرتهما ، وأتت الأحوال موالية لهذه الخطط ، إذ كان جيش الروم في تلك الأرباب ، وكان الامبراطور هرقل يسر أن يرى على عرش الأكامرة ملكاً نصرانياً يخضع له ويطلب حمايته (١) .

حذر شيرويه الموقف فقبض على شمتا ، إلا أن شمتا تمكن من الفرار والتجأ إلى الحيرة فلم يجده هذا الالتجاء نفعاً ، لأن الحيرة العربية كانت قد فقدت شبه استقلالها ، فلم تكن بمد ملجأ لأعداء ملك الملوك ، فقبض شيرويه على خصمه وقطع يديه وسجنه (٢) .

وذكر الدينوري (٣) رواية غير هذه الرواية في سبب خلع كسرى أبرويز لا محل لذكرها هنا ، وفي كتاب أرسله إليه ابنه شيرويه بين له فيه سوء إدارته وأعماله التي أدت إلى خلعه ، وبما قال فيه لأنما أباه ، ومنها قتلك النعمان بن المنذر وصرفك ملك أرضه عن ولده وأهل بيته إلى غيرهم ، يعني إياس بن قبيصة الطائي ، فلم تحفظ فيهم ما كان يحفظه أبائك من حصانته بهرام جور جدك ومعوته بعد أن خرج الملك عنه حتى رده عليه ، فكل هذه ذنوب ارتكبتها وآثام اقترفتها ، لم يكن الله ليرضى منك ، فأخذك بها (٤) .

٥ : المنذر الخامس ابن النعمان أبي قابوس

وهو المنذر المروزي

٦٢٨ - ٦٣٢

ذكر بعض المؤرخين ملك المنذر المروزي ابن النعمان أبي قابوس على الحيرة بعد أن اقتطع الملك عن بيته ، وتولاه غير واحد من السلاطين من عرب وفرنس ، ولكننا نجعل الوسائل التي مهدت له السبل لإعادة سلطان آباءه وأجداده ، وإن قلنا شيئاً فاذك إلا من طريق الحدس والاستنتاج ، فنظن أن دولة الأكامرة ضعفت في هذه المطاري بعد قتل كسرى أبرويز (٦٢٨ م) واستظهار الروم على الفرس في عهد القيصصر هرقل ، وجاءت الفتن الداخلية والنورات القومية ضعفاً على إبالة ، ففتت في عهد الفرس ، وهدمت أركان سيطرتهم ، حتى قام على عرش الأكامرة في غضون أربع سنوات عدد من ملوك وملكات منهم : شيرويه بن أبرويز ، وشيرزاد ابن شيرويه ، وشهريان ، وجوان شير ، وبوران (٥) ، ولم يستقم الأمر لأحد منهم ، بل

(١) لا بور : النصرانية في بلاد فارس من ٢٣٦ (٢) الطبري ٢ : ١٥٩ - ١٦٦ ، ولا بور : ٢٣٢ -

٢٣٦ ، وادي شير ٢ : ٢٤١ - ٢٤٣ Un Nuovo Testo Sulla Storia Degli Uiteini S'assanid

١٠٦ : ١١١ (٤) كذلك ص ١٠٧ (٥) الأخبار الطوال : ١٠٦ - ١١١ Edit, Guidi 1891

الطوال : ١٠٦ - ١١٠ .

خلموا أو قتلوا، فهذا الاضطراب في دولة الآكاسرة ربما هو الذي سهّل السبل للمنذر المغرور أن يستعيد ملك الحيرة، ولكن لم يطل الأمد عليه حتى جاءت جحافل الفاتحين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق في سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) وفتحوا الحيرة. أما المنذر فذهب إلى البحرين وأسلم، وكان يقال له قبل إسلامه الغرور، وسمي نفسه بعد إسلامه المغرور (١)؛ وفي رواية (٢) أن ربيعة ملكوه عليهم في البحرين لما ارتدوا وقتل في واقعة جواتا (٣)، وذكر الطبري أن الحطيم بن ضبيعة أخا بني قيس بن ثعلبة ارتد في البحرين، وأرسل إلى غير واحد واسمه الغرور ابن سويد أخى النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جواتا، وقال: أثبت فأني إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة (٤).

٦: فتح الحيرة

اشتهرت الحيرة بين العرب بمجالها القتال، وزخرفها الجذاب، وموقعها التزه، وقصورها العامرة، وسارت الركبان بذكرها لوجودها في آخر ريف العراق قريبة من البادية على طريق القوافل ومسير القبائل، وللصلات القومية بين سكانها وسكان جزيرة العرب، ولهذا نرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكرها غير مرة في حديثه على ما رواه المؤرخون، ومن ذلك ابتهاجه بنصرة العرب على العجم في واقعة ذي قار، كما مر بنا، وفي كلامه مع عدى ابن حاتم، قال عدى: دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال لي: يا عدى بن حاتم! ه أسلم نسلهم ثلاثاً - نقلت: إني على دين، قال: إني أعلم بدينك منك، نقلت: أنت أعلم بديني مني، قال نعم، ألت من الزكوسية وأنت تأكل مرباع قومك، قلت بلى، قال فإن هذا لا يحل لك في دينك، وقال حاتم: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، فقال: أما إني فأعلم ما الذي يمنحك من الاسلام، تقول إنما أتباعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب؛ أنعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد سمعت بها، قال: فوالذي تقسى بيده ليؤمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تظوف بالبيت في غير جوار أحد ولينتحن كنوز كسرى بن هرمز (قال) قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد، قال عدى بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة وتظوف بالبيت من جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي تقسى بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قالها (٥).

(١) ابن الأثير ٢: ١٥٤ (٢) الطبري ٣: ٢٥٥ (٣) كذلك ٢: ١٥٧ (٤) الطبري ٤: ١٥

(٥) مسند عدى بن حاتم من كتاب سند الامام أحمد بن حنبل، ومجلة المشرق ١٩٠٥: ص ٥٠٧

وذكرت الخيرة أمام النبي - صلى الله عليه وسلم - غير هذه المرة . حتى ابن الكلابي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما افتتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم بن عمه ، فلما صارا عند النبي تسابا وتهازرا ، فقال قيس بن الأهتم : والله يا رسول الله ما هم منا وإنيهم لمن أهل الخيرة ، فقال عمرو بن الأهتم : بل هو والله يا رسول الله من الروم ، وليس منا ؛ ثم أنشد شعرا ، فأجابه عمرو بن الأهتم بشعر تعرض به وبالخيرين ومن ذلك قوله :

ما في بني الأهتم من طائل يرجى ولا خير له يصلحون
قل لبني الخيرة مخصوصة تظهر منهم بعض ما يكتنون
لولا دفاعي كنتموا أعبداً مسكنها الخيرة فالسليحون
جاءت بكم عفرة من أرضها حيرية ليست كما تزعمون
في ظاهر الكف وفي بطنها راحم من الداء الذي تكتنون^(١)

وذكر أيضاً عدي بن حاتم قائلاً : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكر ما رفع له من البلدان ، فذكر الخيرة فيما رفع له ، وكان شرف قصورها أضراس الكلاب عرفت أن قد أريها وأنها ستفتح^(٢) .

وقال شويل محدثاً خالد بن الوليد : إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكر فتح الخيرة : فسأله كرامة بنت عبد المسيح ، فقال : هي لك إذا فتحت الخيرة عنوة وشهد له بذلك^(٣) .

هذا ما جاء عن النبي محمد بن عبد الله في ذكر الخيرة وفي الفموج إلى فتحها ، ولكن لم يتم من أمر ذلك شيء إلا بعد أن تولى الخلافة أبو بكر الصديق . وكان أول من غزا أرض العراق من المسلمين : المنى بن حارثة الشيباني ، والآخر سويد بن قطبة^(٤) العجلي ، فأقبلا حتى نزلا فيمن جما بتخوم أرض المعجم ، فكانا يغيران على الدهانين فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طلبا أمنا في البر فلا يتبعهما أحد ، وكان المنى يغير من ناحية الخيرة ، وسويد من ناحية الآبة ، وذلك في خلافة أبي بكر ، فكتب المنى بن حارثة إلى أبي بكر - رضى الله عنه - يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم ويسأله أن يمدد بجيش ، فلما انتهى كتابه إلى أبي بكر - رضى الله عنه - كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، وقد كان فرغ من أهل الردة - أن يسير إلى الخيرة فيحارب فارس ويضم إليه المنى ومن معه ، وكره المنى ورود خالد عليه ، وكان

(١) الأغانى ١٣ : ١٥٠ (٢) الطبرى ٤ : ١٥ (٣) كذلك (٤) وجاء في معجم البلدان في المادة « نمان » أن أول من قدم أرض العراق لقتال أهل فارس حرمة بن بريطة وسلي بن القين فزلا أمدد ونهان والجرانة ، وكانا من المهاجرين ومن صالحى الصحابة .

خلن أن أباً بكر سيوليه الأمر، فسار خالد في سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) إلى العراق حتى نزل بباقيا^(١) وباروسما^(٢) وأليس^(٣)، وكان الذي صالحه عليها بصبري بن صلوبا، وكتب خالد بن الوليد لهم كتاباً فيه «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن بصبري ومنزله بشاطيء الفرات، إنك آمن بأمان الله على حقن دمك في إعطاء الجزيرة عن نفسك وجيرتك وأهل فريتك. باقيا وسميا على ألف درهم جزية، وقد قبلنا منك ورضي من معي من المسلمين بذلك، فلك ذمة الله، وذمة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وذمة المسلمين على ذلك... شهد هشام بن الوليد، وجرير بن عبد الله بن أبي عوف، وسعيد ابن عمرو وكتب سنة ١٣ والسلام». ويروي ذلك أنه كان سنة ١٢^(٤).

ثم أقبل خالد بن الوليد حتى دنا من الحيرة فخرجت إليه خيول أزازبة صاحب خيل كسرى التي كانت في مسالخ ما بينه وبين العرب فلقوهم بمجتمع الأنهار، فتوجه إليهم المنثي بن حارثة فبهزمهم الله، ولما رأى ذلك أهل الحيرة خرجوا يستقبارونه، فهم عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة وهاني، بن قبيصة، فقال لهم خالد: إني أدعوكم إلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت، كما تحبون أتم شرب الخمر، فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق، وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ففعلوا^(٥).

الظاهر أن هذا الصلح لم يدم طويلاً، لأن الحكومة المركزية الفارسية علت بالأمر، وجيشت الجيوش لحاربة الفاتحين، فانسحب خالد بن الوليد، ولهذا نراه يحارب في شهر صفر من السنة عينها في الوجبة وأليس وامنشيا، وبعد أن انتصر في هذه المواقع سار إلى الحيرة

(١) ناحية من نواحي الكوفة وذكرها في الفتوح (٢) قال ياقوت: باروسما ناحيتان من سواد بغداد، ويقال لها باروسما الأعلى وباروسما الأسفل من كورة الأستان الأوسط (٣) أليس قرية من قرى الأنبار (٤) راجع معجم البلدان للمادة «باقيا»، وجاءت صورة هذه الرسالة في الطبري ٤: ٣ بالنص الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادي ومنزله بشاطيء الفرات، إنك آمن بأمان الله إذ حقن دمه إعطاء الجزيرة، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان بقريتك. باقيا وباروسما - ألف درهم فقبلتها منك وشهد هشام بن الوليد».

(٥) الطبري ٤: ص ٣ - ٤.

وجعل الرجال والأطفال في السفن ، فخرج مرزبان الحيرة ، وهو الأزازبة ، فعسكر عند الغرين ، وأرسل ابنه فقطع الماء عن السفن ، فبقيت على الأرض ، فسار خالد في خيل نحو ابن الأزازبة فلقى عليه على فرات بادقلى ، فضربه وقتله وقتل أصحابه ، وسار نحو الحيرة فهرب منه الأزازبة ، وكان قد بلغه موت أردشير (١) وقتل ابنه فهرب بغير قتال ، ونزل المسلمون عند الغرين وتحصن أهل الحيرة فحصرهم في قصورهم ، وكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر المدسين وفيه عدى بن عدى المقبول ، وكان ضرار بن مقرن المزني - عاشر عشرة إخوة له - محاصراً قصر بني مازن ، وفيه ابن أكال ، وكان المثنى محاصراً قصر ابن بقلبة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح فدعوه جميعاً وأجلوهم يوماً فأبى أهل الحيرة ولجوا فناوشهم المسلمون ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يبدوا بالدماء ، فإن قبلوا قبلوا منهم ، وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وكان ضرار بن الأزور على قتال القصر الأبيض ، فأصبحوا وهم مشرفون ، فدناهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزاء ، أو المنايذة ، فاختاروا المنايذة وتنادوا عليكم الخزازيف ، فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي حتى تنظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متملق الخالي يرمون المسلمين بالخزازيف -وهي المداحي من الخزف - فقال ضرار : ارشقوهم فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رهوس الحيطان ، ثم بنوا حارثهم فيمن يليهم ، وصبح أمير كل قوم بمنزل ذلك فافتتحوا الدور والديارات وأكثروا القتل ، فنادى القصبسون والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ، فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً ، فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار ابن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكال هذا إلى ضرار بن مقرن ، وهذا إلى المثنى بن حارثة فأرسلوه إلى خالد ، فغلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى وقال : وبحكم ما أتمم عرب ، فاستعمون من العرب أو العجم ، فاستعمون من الانصاف والعدل ، فقال له عدى : بل عرب حارثة وأخرى متعربة ، فصالحوهم على مائة وتسعين ألفاً وتتابعوا على ذلك وأهدوا له هدايا (٢) .

يوسف غنيمية

[للبحث بقية]

(١) ابن الأثير ٢ : ١٦٣ .

(٢) الطبري ٤ : ١٢ .